أبحاث ندوة عمارة المساجد، م ٥ أ، ص ص ١١٣- ، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود (١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م)

المئذنة بين الماضي والحاضر:
قراءة في الضرورة والضرار[1]

الأخضر بن عبد الله

كلية الآداب، جامعة وهران

السانية، الجزائر

ملخص البحث: ينطق هذا البحث بالتعريف موضوعه من خلال الدور التاريخي والمعاصر لأحد عناصر عمران المسجد: المئذنة. ثم ينتقل إلى مناقشة أصل الكلمة ومعانيها اللغوية وكلٍّ من مرادفاتها: الصومعة والمنارة.

ويشرح البحث أيضاً نماذج للمئذنة من العالم الإسلامي موصفاً لأوجهها البنائية والتشكيلية, ويطرح آراء المفكرين حول تطورها، كما يتدارس في فقرة رئيسية فيه تطور المئذنة من الجوانب: الشرعية والوظيفية والتقنية.

ويخلص الباحث إلى ضرورة اتخاذ قرار جماعي من قبل المعنيين في دول العالم الإسلاميِّ حول إشكالية المئذنة المطروحة في الوقت الحاضر سواءً من الناحية التشكيلية أو العمرانية ويقترح إقامة مشاريع وأفكار بديلة عوضاً عن اتجاه التطوير السلبي في العصر الحديث، ويحدد عدداً من البدائل لتلك المشاريع بهدف مناقشتها ودراستها من قبل العلماء والدارسين في ندوة عمارة المساجد سائلاً الله العليَّ العون للجميع.

المقدمة

لقد كان المسجد في الجزائر وفي سواه من منظومة البلدان الإسلامية القلعة الشامخة التي آوت الإسلام وصانت وجهه الحضاري العربي المسلم من أثر المسخ التغريبي ومظاهره المرضية. فالمسجد، على هذا، يعد بحق داراً للشفاء الروحي الذي كانت وما انفكت مئذنته تعلن عن وجوده وبروزه في الوسط المتشابك من النسيج العمراني المتداخل الحجوم والأشكال , وتذكِّر في الوقت ذاته وفي كل آن وآونة المستضعفين في الأرض بانتمائهم الروحي إلى خالق الأرض والسموات العلى، رب الشعرى. ومثل هذا الإحساس بخطورة المسجد كعنوان أصالة وانتماء روحي قد ترجمته الجزائر بإقدامها منذ الوهلة الأولى للاستقلال على استرجاع الاسم القديم (كتشاوة) للمسجد العتيق والذي قام المارشال لويس بورمون ممثلاً للمستعمر الفرنسي بطرح مئذنته انتقاما لتحويله إلى كنيسة مستخدماً أسلوباً ثأرياً متذرعاً، وكما تروي كتب التاريخ المزورة ، بان الجامع أقيم أساسه على موقع دير نصراني مسمى بـ بازيليكا أوكوسيوم Basilique d'Icosium. وأن المتتبع عن كثب لمختلف حقبات التحولات التي شهدتها هذه العمارة لوجد فيها شكلا من ضروب الصراع العقائدي المحتدم ما بين القوتين: المتعجرفة الظالمة والمستضعفة المظلومة.[1] إنه صراع تتحدث عنه تصريحات دبلوماسية مراوغة ظاهرها الرحمة وباطنها من قبله العذاب. فمئذنة

[1] الضرار لا يراد منه معنى قراني خاص ورد في سورة البراءة، وإنما يقصد به معنى المضرة إجمالاً

مسجد كتشاوة الجزائري عنصر معماري لا يقف محموله الدلالي عند حد التأشير على مظهر زخرفي للمسجد وإنما يتجاوزه إلى حد التأكيد على تواجد حضاري من نوع عقائدي متميز. والمسجد يبقى إجمالا، شئنا أم أبينا مربضاً ومربطاً للخيول المتصارعة . ولأنه كذلك وفوق ذلك، تكون هدف هذا البحث ألا وهو قراءة متواضعة لعنصر من أبرز العناصر المرتبطة بالعمارة المسجدية ممثلا في المئذنة. وليس المتوخى الوقوف على مسار تاريخي لمئذنة بعينها أو مآذن ولا هو التدقيق في جزئيات هندسية لصومعة بحالها، بل إن المبتغى من سطور مداخلة محدودة الحيز لا يزيد عن الرغبة في تفهم واقع المئذنة الإسلامية تفهماً معرفياً متسائلين عن ظاهرة تعددها في المساجد ومدى موافقتها أو عدم مطابقتها لمقتضى الشرع الإسلامي وواقع المسلمين الديني منه والدنيوي. إنه التساؤل الصادق النية والطوية الذي يأمل الباحث بحول الله وعونه أن يطرحه بين أيدي العلماء الأجلاء سعيا صادقا إلى الاستزادة من علمهم ونورهم و﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ۞ وإنّ سعيه سوف يرى ۞ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ۞ . وأنّ إلى ربك المنتهى.﴾ [٢، النجم ٣٩- ٤٢]

وخلاف المنبر والمحراب والصحن بوصفها عناصر معمارية داخلية لعمارة المسجد، فإنّ المئذنة تظل المظهر أو العنصر البراني الذي يفصح إفصاحا عن حضور متميز للمسجد. فالمئذنة أو الصومعة أو المنارة كما سنأتي على ذلك ذكرا في الجانب اللغوي للاصطلاح تشبه سبّابةً منتصبة نحو الأعلى تزهو وتزدهي بقدر من الطول أو القصر تتبدى للعيان وكأنها سبابة متشهدة تقر بوحدانية الخالق الأسمى. لكن وكما أن القبلة ليست تأشيرا تعيينيا دقيقا على جهة المعبود سبحانه بقدر ما هي توحيد لوجوه المسلمين نحو وجهة واحدة، كذلك المئذنة لم تكن تحديداً لوجود المعبودْ في أعلى عِلِّيين كما توهم فرعون وهامان وإنما نحسبها تعبيراً إنسانياً مادياً عن علو شأن الله وكلمته في الأرض ودعوة إلى الالتفاف حولها. فالمئذنة تحضر، فيما نعتقد، لتكمل خطابا يرمز لصحن مسجد ما فتئ منفتح الفضاء مُشرَعَه على الديني والدنيوي خلاف حيز للكنيسة الذي ظل منغلق الأرجاء موصدها على تعاقب الحقب، وفي هذا الانغلاق والانقفال ما يصف طابعها المعماري بضرب من التقوقع والانعزالية الخانقة التي حضر الإسلام لينسف أطرها المصطنعة و يفتح ما انسد في هندستها المعمارية. ورغم هذه الخصوصية، فإن الكتابات الغربية والمستغربة على السواء نجدها حين تعرضها لبدايات المئذنة تبدي قدرا كبيرا من العنت والإصرار على العودة بها إلى أصول نصرانية في محاولة للنيل من إسلاميتها وأصالتها.[٣] وهذا تعويلا على تقنية التخريجات الاشتقاقية بحثا عن الجذور الأولى والتي لا بأس أن خصصت بوقفة استعراضية قصيرة في هذه الورقة.

يسير هذا البحث، بعون الله، تعالى على هدي الخطة التالية:

- المقدمة
- المئذنة لغة واصطلاحا
- نماذج من المآذن الإسلامية
- المئذنة بين التطور العمراني والتطور الوظيفي
- الخلاصة

المئذنة لغة واصطلاحاً

لم يكن المسجد الذي ساهم ببنائه عليه السلام في المدينة المنورة بوصفه أبا للمساجد الجامعة ليضم ما بين جوانبه وضمن عناصر عمارته الأساسية عنصر المئذنة، بل ورغم التجديدات التي أدخلها عليه أبو بكر وعمر وعثمان إلا أن المئذنة ظلت عنصرا معماريا دائم الغياب، وأول ذكر للمآذن، فيما ننقل عن حسين مؤنس في كتابه (المساجد)،[٤] يعود إلى أيام إقامة مسجد الفسطاط إذ (أن مسلمة بن مخلد بنى للجامع في تجديده أربع مآذن)[٤] ليعلق الباحث على ذلك مباشرة بقوله: (فإذا صدق هذا الخبر كان هذا أول ذكر للمآذن في المساجد. والمعروف على أي حال إن أقدم المآذن هي مئذنة جامع عقبة بن نافع في القيروان، وقد بنيت سنة ٥٠ ــ ٥٥ هجرية).[٤]

فالمئذنة على هذا عنصر معماري مستحدث جاءت به موجة الفتوحات الإسلامية ورغبة الأسلمة للموروث الحضاري. وإن النظر في شأن المصطلحات المتعددة المخصصة لهذا العنصر المعماري الظاهري للمسجد يكشف عن وظيفة أو وظائف لازمته قدما، تحددها ثلاثة مصطلحات هي: المئذنة، المنارة والصومعة. وللتنبيه فقط لنقل أن التداول لهذه المفردات يختلف بقدر ما يتفاوت من منطقة إسلامية إلى أخرى. وسنعرض لغويا لكل واحدة منها باقتضاب شديد.

الصومعة

الصومعة: لفظا تعني البرج أو كل بناء عال متضام الجوانب ملحمها. ويوردها ابن منظور ضمن مادة صمع فيذكر فيما يذكر في هذا الصدد. رجل أصمع: إذا كان متيقظا ذكيا. والصومعة من البناء سميت صومعة لتلطيف أعلاها. والصومعة منار الراهب. ولسيبويه رأي صاغه ملخصا صاحب اللسان على النحو التالي: هو من الأصمع يعني المحدد الطرف المنضم، وصومع بناءه: بمعنى علاه.. وقد مثل به سيبويه وفسره السيرافي. والصومعة أخيرا منار الراهب فيما يذكر ابن منظور.

أما في المصحف الشريف، فالكلمة المفردة ترد بصيغة الجمع﴿الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾ [٢، الحج ٤٠] لكن لا مستذكرة ولا مطابقة لمعنى مأنوس لها عند العامة. وإنّ معجم ألفاظ القرآن يقر أن اللفظة في المقلم السُّوَري المذكور تعطي معنى مستمدا من الحبشية مؤداه معابد رهبان النصارى أو الأديرة. ولا ضرر في ذلك ولا ضير ما دام الإسلام ممثلا في قرآنه الكريم قد عودنا على التعامل مع معجمية الغير اقتراضا واعتراضا ودون أدنى حرج ولا ضيق صدر. فالقرآن مثلا يستحضر، تارة، لفظ الصلوات (بمعنى معابد اليهود) وتارة أخرى بمعناها الإسلامي السليم أي الركن العقائدي القائم ضمن الأركان الخمسة. وفي هذا الاستثمار المزدوج للقدرات التدليلية للفظة الواحدة ما نحسبه يقدم درسا أمثل إن لم يكن الأول في تقنية ما يعرف بالاصطلاح الفعال.

لكن، يبدو أنه حيال هذا التقاطع اللفظي لا الاصطلاحي لكلمة "صومعة" ما بين (عربية ــ الإسلام) و(حبشية ــ المسيحية) قد وجد المؤلعون بهندسة القناعات العلمية، التاريخية منها وغير التاريخية، فرصة سانحة للجهر بملء الحناجر بتبعية عنصر

الصومعة الإسلامية لعمارة الكنيسة ومن ثم التشكيك ضمنا في أصالة الدين الجديد. وحتى لو سلمنا تسليما قطعيا بصدق هذه الأطروحة، فإن الناتج المترتب عن هذا الطرح، لا يضير الإسلام في شيء بل ولا يخدشه أو جوهرته المسجدية ما دامت العبرة ليست بتشاكل المظهر العمراني بقدر ما هي كامنة في الجوهر الوظائفي المنذور له هذا أو ذاك البنيان المرصوص. فمثل هذا القول لم تسلم من شراكه التآمرية القبلة أو المحراب أو المنبر بوصفها إحدى عناصر المسجد الأساسية، فما بالك بمئذنة لا تختلف جل الدراسات حول نسبها الذي يعود إلى عهود ديانات سابقة، فهي بالتالي عنصر وافد على عمارة المسجد لكنه أخضع لفعل الأسلمة ولاحقا "للأقلمة" والكلمة تشير إلى الاستفادة لاحقا من الواقع الإقليمي في تشكيلها.

وعليه، فإن جهد الغارقين في البحث "الاركيولوجي الأثري" القديم للكلمة لا يرى إلا مكاء وتصدية المتوخى منه القول بأسبقية الديانة اليهودية والمسيحية على الدين الإسلامي وبالتالي استعطاء هذا الأخير للكثير من المظاهر الشعائرية المنصوص عليها في الديانتين الآنفتي الذكر، لأن ذلك يعد من باب تحصيل الحاصل والمندرج ضمن مبدأ التكامل الدائري المتنامي ما بين:

١- مدرسة ابتدائية (أساسها اليهودية).

٢- ومدرسة ثانوية إعدادية (تمثلها المسيحية).

٣- ومؤسسة عليا جامعية ممثلة في الدين الإسلامي الحنيف.

ومن ثم، فإن التعامل مع الديانات السماوية الثلاث من هذا المنطلق السليم تعامل يقر إقرارا لا غبار عليه بوحدوية الأصل الرسالاتي ووحدانية المرسل الأزلي الذي لا شريك له ويسقط ترهة القول المصنف للديانات على أساس طبقي مشكل من: أصل، فنسخة، فنسخة النسخة، أي القول بما يلي:

١- أصل Original وتمثله العقيدة اليهودية.

٢- نسخة أولى وتمثلها الديانة النصرانية.

٣- نسخة للإسلام مستنسخة عنهما فيها قدرا عاليا من التحوير والتزوير.

وإن الباحث المتتبع لبدايات نشأة الصومعة وأصلها لا يرى فيها ما يضير أو يدعو للاعتراض عليه لو ظلت الجهود التحرياتية التنقيبية تنشد فقط الوقوف على النواة الأولية المشككة لهذه العمارة وبنوايا معفاة الخلفية من كل غرض مغرض. للأسف لا يمكن التصور أن مثل هذه الرؤيا المتبصرة كانت الخيط الحادي الهادي لكاتب وضع ووقع مقالة "منارة" في موسوعة الإسلام في نسختها الفرنسية المعتمدة في هذا البحث.[٥]

المنارة

إنها لفظة لا يطال الشك أصلها العربي الفصيح، إلا أن مدلولها يصطدم هو الآخر بأكثر من رأي متضارب. فالأغلبية الغالبة من الباحثين يربطون بداياتها بعالم البحرية ووسائله بمعنى أنها ذات صلة مباشرة بعمل دنيوي ولا صلة لها بدين أو عقيدة،فالمنارة تعد،على هذا، سليلة الفنار أو المنار الهادي للسفن الضالة سبلها في البحر، في حين يؤكد نفر آخر من الدارسين، وهم كثر،أن

للمنارة ارتباط بعمارة الكنيسة النصرانية. وهناك البعض الآخر أمثال Ernst Kuhnel في مصنفه "الفن الإسلامي"[٦] (فيرجح أنها مأخوذة عن الفنارات وأبراج الإشارة المعروفة في العصور السابقة وبخاصة أبراج القبور التدمرية، و لم يكن الدافع إلى اتخاذها تقليد روعة الأبراج الكنسية في سوريا). ورغم أن هذه مجرد فرضية مثل سواها، إلا أن كاتب مقال "منارة[٥]" في موسوعة الإسلام نلفيه كالواثق من نفسه بل المتأكد من عصمته يستبعد استبعادا فرضية وجود علاقة نَسَبية أو سببية ما بين مصطلح المنارة ولفظ "النور" الذي وصف الله به ذاته العليّة. وحتى في غياب سند لغوي ضارب الجذر في المعجم الغربي، فإن سادة التخريج اللغوي الغربي مصرون إصرارا على رد ورفض كل ارتباط للفظة بأصل عقائدي إسلامي، والحجة عندهم أن لفظ المنارة كان قائم الوجود قبل حضور الإسلام وشيوع نوره، وبالتالي، فالتسمية – وجودا – سابقة على الظاهرة ولا يمكن تفسير مصدر التسمية القائمة بحدث حادث (هنا الإسلام) الذي سَيَجّدُ جديده على الساحة. إن فعل الاصطلاح لا يستلزم من صاحبه اللجوء كل مرة إلى ابتداع لفظ جديد كل ما استجد حادث أو طرأ طارئ. إذ بالإمكان التعويل على بعض ما تراكم من كم لغوي وتسخير لفظه القديم للتدليل على المستحدث المستجد على نحو اقتراض أو إسقاط: وهو أسلوب في الاصطلاح لا ينافي أو يجافي ما قد جرى به العمل قديما أو حديثا ومثال ذلك لفظ "قطار"، الذي ورد في معجمية عربنا القدامى لكن بمعنى قافلة للجمال متلاحقة الإبل، أما اليوم فاللفظ قد استعير من قِبَل المجمع اللغوي المصري ليُسقَط على سلسلة العربات المشكلة لإحدى وسائل النقل الحديدية، ومثل ذلك قد يقال عن لفظ سيارة ومثله كثير. إن ما نريد الخلوص إليه ليس هو القول بعروبة أصل المنارة ونشأتها وإنما القول احتمالا باشتقاق لفظ المنارة من لفظ "نور" ونسبة إلى نور الخالق جل وعلا. مهما يكن من أمر هذه الفرضية، فإننا لن نطيل المقام عند هذا الجانب المستبطن لبدايات الأشياء وذاك لتعذر الحسم في إشكالها، ولننتقل في إطار هذا التقصي اللغوي إلى تسمية أخرى وأخيرة لنفس العنصر المعماري, ألا وهي المئذنة.

المئذنة

وترد بصيغتي: مئذنة وهي الأعم، ومؤذنة (بضم الميم وتسكين الهمزة) وهي أقل شيوعا. ورغم أنها الأنقى لغة والأقرب ربما إلى الجوهر الوظائفي للعمارة، إلا أنها للأسف الشديد تظل اللفظة الأقل تداولا في الاستخدام اليومي للناس وهذا استثقالا لهمزة كانت العرب قديماً وحديثا تتلافى طابع حرفها الانفجاري، لربما ورغم ذلك وهي الأخرى بدورها، لم تفلت من متابعة المحترفين النبش في طبقاتها اللغوية وصولا إلى الموطن الأول. لقد ارتأى كاتب مقالة في "موسوعة الإسلام" [٥] أن مصطلح "مئذنة" الذي يأتي من فعل "أذّن" لا يعني دلالة الإبلاغ في حدود معناها العقائدي الضيق، فاللفظة، فيما ذكر صاحب المقالة، واردة بتواتر ملحوظ في شعر الجاهلية لكن بمعنى التنبيه والإبلاغ إجمالا [٧] وليس بخصوصية المعنى العقائدي الضيق، وعليه، فهو لا يبدي تحمسا لربط أصل التسمية بمؤدي وظيفة دينية بعينها. ويتناسى باحث الموسوعة وربما نسي حديثا وقولا مأثورا للرسول ﷺ وحكاية مؤذن الإسلام الأول ممثلا في بلال وقبلة إبراهيم عليه السلام. فلفظ "أذّن" لفظ ذو صبغة دينية لا تنكر كما لا تنكر له دلالة عامة تتوزع فضاءه ضمن ما يعرف بالتشارك اللفظي. وقد يكون بوسعنا الاستمرار في المحاجة الايتيمولوجية لجذر الكلمة دعما أو دحضا لأطروحة، غير أن ذلك لن يفيد, فالدخول في جدل حول بدايات تاريخية للمئذنة تؤكد أن البحث في أصول الأشياء الأولى المنغرسة في ظلمة الزمن، بحث فيلولوجي أركيولوجي قد يستنفد من الطاقات ما يستنفد ولربما كان ذلك دون طائل يذكر؛ لذا فالباحث ومن باب الحرص على جانب النجاعة والفاعلية العملية في البحث،

إيلاء جانب النهايات كل الاهتمام وهذا عملا بقوله (ﷺ) "انما الأعمال بالنيات"، أو قول المثل المأثور: "إنما الأمور بخواتيمها." على أن الباحث لا زال يأمل في أن تتوحد لغة العلماء وفقهاء المسلمين على تسمية بعينها لهذا العنصر العمراني المعماري يكون جامعا مانعا ململما لهذا الشتات المفرداتي المبلبل للبال واللسان، ولا يخفى على السادة الحضور الكرام ما كان للباحث من حرج فيما يجب أن يأخذ أو يطرح من التسميات المترادفة لعنصر معماري واحد وهذا خشية أن يرمى بالتحيز لتسمية دون أخرى أو الميل كل الميل في اتجاه بعينه. وما دام للأشياء كل الأشياء بداية لا بد منها، يأمل الباحث صادقا أن يبذل الرأي ويتداول وصولا إلى توحيد استخدام مصطلح مفرداتي بعينه لأن فيه، وعلى بساطته، ما يعمل في اتجاه لملمة شتات هذا التبلبل الألسني والإنساني.

وضربا في هذا الاتجاه ومن باب الاجتهاد لا غير، يمكن القول أن ما جاء به الدكتور حسين مؤنس من تخريج دلالي تاريخي بوسعه تقديم الهداية لتوحيد مصطلح لعنصر معماري بعينه،فهو في تدارسه للفروقات القائمة ما بين: صومعة/مئذنة/منارة، يورد تعويلا على رواية لابن دقماق والمقريزي يقولان فيها أن مسلمة بن مخلد، الذي كان عامل مصر لمعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد وحفيده معاوية من ٤٧ إلى ٦٢ هجرية أنشأ سنة ٥٣ أربع صوامع في أركان جامع عمرو بن العاص في الفسطاط لغرض الأذان، وأمر بأن تبنى منارات في معظم مساجد الفسطاط الأخرى، وأمر مؤذني جامع عمرو بأن يبدؤوا بالأذان للصلوات ثم يتلوهم المؤذنون في المنارات.[٤، ص ١٣٠] وبعد الفحص والتمحيص لما جاء في رواية ابن دقماق والمقريزي يخلص حسين مؤنس إلى الاستنتاج التالي: "وهذان الخبران يسمحان لنا بالقول بأن المآذن نشأت عن الصوامع (وهي الأبراج) والمنائر، ثم امتزج الطرازان معا فظهرت مآذن المساجد الأولى التي بقي لنا بعضها اليوم." [٤، ص ١٣٠]

وتأسيسا على ما سبق، وفي غياب معجم تاريخي للألفاظ، لا يرى الباحث مانعا موضوعيا في أن يجمع أبناء العربية الرأي فيأخذوا سويا بلفظ مئذنة عوضا عن نظيريه السالفين توحيدا للمصطلح وادخارا للجهد اللغوي. وإن الأخذ بلفظ مئذنة دون اللفظين الآخرين يمكن تبريره انطلاقا مما يلي:

١- لفظ الصومعة "بمعنى الدير" الوارد في القرآن يخلق إشكالا قياسا إلى معناه المتداول لدى العامة.

٢- "منارة" وذاك لتشاكل معناها ولفظ المنارة البحرية والفنار ناهيك عن ارتباطها الاشتقاقي بنار مجوسية.

أما المئذنة، فخلاف المفردتين السابقتين، لفظها يحال مباشرة على وظيفة لازمت العنصر المعماري المذكور.

هذا فيما يخص الجانب اللغوي والاصطلاحي، أين هو واقع المآذن في أيامنا؟ حضورا وغيابا، شكلا ومضمونا، سلبا أو إيجابا انه "السؤال: الإشكال" الذي سيتم طرحه لاحقا ضمن هذا البحث.

نماذج من المآذن الإسلامية

بلغ الاهتمام بالمآذن من قبل محترفي ومهندسي العمارة الإسلامية حد أن توزعت أشكالا وألوانا،شعوبا وقبائل فكانت بحسب :

الشكل الهندسي

١- المربعة: وتتواجد بكثرة في المغرب والأندلس والشام،

٢- المخروطية: قائمة بشكل بارز ومتميز كما في إيران،

٣- المثمنة: ذات الأضلاع اللولبية،

٤- الأسطوانية: وبعضها أسطواني الشكل مزودة برؤوس مخروطية مدببة (قلمية الشكل حادته) وتمثل المئذنة التركية الإسلامية،

٥- أخرى: وفيها ما جاءت على نحو شمعة مثل مئذنة مسجد الشيخ صباح الناصر برأس السالمية ومسجد الشيخة فاطمة، والمئذنة المظلة المغلقة كمئذنة مسجد الزين، أو تلك الأخرى على شكل فانوس لمسجد الأذينية بالسالمية بالكويت.

كما بالإمكان التعرض إلى واقع المآذن وتصنيفها بحسب مادة البناء المستخدمة في تشييدها، وفي هذا الشأن نلحظ طغيان مادة كل من:

١- الحجر في الأندلس ومصر والشام وآسيا الصغرى،

٢- الآجر والقرميد وهو حاضر بوضوح في إقامة أود مآذن كل من بلاد المغرب والعراق وفارس وأفغانستان،

٣- الحجر والآجر وهما مستخدمان بكثرة في الهند.

الارتفاع

إن الناظر في هندسة المآذن وصيرورتها يلحظ الخطوات المعتبرة التي سجلتها الهندسة الإسلامية في مجال التنويع في أشكالها وزخرفتها والامتداد بها دوما نحو الأعلى والأسمى. فالإصرار من لدن القائمين على هذه العمارة إصرار مسكون بهاجس تحقيق السبق على مستوى الأرقام القياسية في العلو والسمو، على ظن أن ذلك يحقق للمسجد ضربا من التمايز عما عداه. وهكذا، ما عد بالأمس أعلى مئذنة قد زحزح في الغد عن مقام الصدارة، فمثلا صومعة "المنصورة" كانت تعد إلى وقت ما أعلى صومعة في الجزائر، وثالثة المآذن العالية في المغرب العربي بعد مئذنة "الكتبية" بارتفاع قدره ٦٧,٥ مترا وصومعة مسجد حسان بـ ٤٤ مترا.[٣، ص٢٧٥]

وأما اليوم، فالتنافس على أشده، مئذنة مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء بارتفاع قدره ٢٠٠ متر تنفرد بالمقام الأول على المستوى العالمي دون أن يعني ذلك دوام الحال على ما هو عليه، ما دام الحديث يروج عن محاولة عراقية لاكتساب قصب السبق في مجال الأضخم والأفخم وعلى رأسها عنصر المئذنة. فالتنافس قائم على أشده وربما احتد واشتد أكثر. والسؤال ما

مدى مشروعية هذا الفعل التنافسي في تشييد عنصر معماري وافد على عمارة المسجد غير مستمد من ثوابتها المؤكـــدة؟ وإن الأمر يستدعي التساؤل عن جدوى هذه المراهنة على عوامل ارتفاع المآذن وزخرفتها وتعددها وكأنها غدت شروطا لا تصـح بدونها للمسجد عمارة أو شرعية وجود.

أخرى

هذا وبوسع الباحث المتعمق في عنصر المئذنة، أن يقارب موضوعاتها من زاوية واقعها ومواضعها من عمارة المسجد، وهـــي زاوية رصد وتناول تصلح ضمن أخرى لتطارح إشكالية المئذنة شأنها شأن أكثر من عنصر استحدثه الخلف و لم نقف له علـى أثر مأثور عند السلف الصالح، ودون أن يعني هذا الإمعان في النظر والتفحص لها قولا ضمنيا بتحريم أو كراهية بقدر توخـي مزيد من النجاعة والفاعلية، ولـــم لا؟، تخليص عمارة المسجد مما علق بها من لواحق حتى لا يقال إنها من الزوائد تستنـــزف من مال المسلمين ما هو أولى بأن يصرف على وجوه للمصلحة العامة: انه المبتغى الإيماني العملي الذي يستهدى به اليـــوم في طرح إشكالية التعدد للمآذن وزخرفتها اللافتة للانتباه بل المستفزة.

المئذنة بين التطور العمراني والتطور الوظيفي

المئذنة، فيما يذكر بعض مؤرخينا المسلمين القدامى ، وعلى رأسهم المقريزي[٤] تعد من الهياكل المعمارية المستحدثة المبتدعة.

فهل يكون في طبيعة المكان الأول ومنطلقاته المفتوحة الأرجاء، بمعنى، غياب الحاجز الطبيعي المعرقل لانتشار صوت المؤذن مـا صرف المسلم الأول وأغناه عن الاستنجاد بخدمات مئذنة ذاهبة في السماء، واكتفى عند حاجة التأذين والأذان إلى الوقـــوف على مرتفع جدار من الجدران للجهر بقرب موعد الصلاة أو الحج على عهد إبراهيم عليه السلام؟﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾ [٢، الحج ٢٧]

إن المئذنة في تاريخ العمارة الإسلامية نحسبها واردة على البيئة العربية الإسلامية بموجب الأثر التفاعلي ما بـــين الحضـــارات المتجاورة، بل وأكثر، بموجب انصهار ذلك العنصر البشري الوافد على دار الإسلام من حضارة الجيرة والغير. هذا ولا نستبعد كلية أن تكون الحاجة التنافسية قد مثلت داعيا موضوعيا سعى إلى الانشغال بالمئذنة والاشتغال علـى هندســتها: تصميمـا وتنظيما وترميما. إن شأنها في ذلك شأن عملة صكها الخليفة الإسلامي تأكيدا للهوية الروحية وصونا لها من تبعية شـــوائب الشرك الذي حملت العملة أثرا منه "وأول من ضرب العملة في الإسلام عمر بن الخطاب ﷺ، في سنة ثماني عشرة من الهجـرة على نقش الكسروية وزاد فيها الحمد لله محمد رسول الله." [٨] العملة مثلها الصومعة سعت إلى إثبات خصوصية الذات المؤمنة ولو انطلاقا من القائم المكرس لدى آل المسيح أو سواهم من شعوب المعمورة. ولتعدد الأقوام المنصهرة في بوتقـــة الإســـلام وتنوع مشاربهم المعرفية والحضارية، فقد جاءت المئذنة حاملة لبصمات هذا الثراء الإتني الإنساني المشكل للوحـــة الإســـلام الكبرى، فكونت صنوفا وضروبا، أجمل القول فيها الدكتور زكي محمد حسن فكتب في مصنفه "في الفنون الإسلامية": "منها نوع على شكل برج مربع وقد انتشر في شمالي أفريقيا والأندلس ومن أمثلته مئذنة المسجد الجامع في القيروان ومنارة الكتبية في

مراكش ومنارة مسجد اشبيلية خيرالدة أما المنارة في الطراز العثماني فمستديرة ودقيقة ومشوقة وفي أعلاها مخروط مدبب ومن أمثلتها المآذن في جوامع اسطمبول وفي جامع محمد علي بالقاهرة، أما مآذن إيران فليس فيها شرفات للمؤذن بل تنتهي في أعلاها بردهة يسندها كورنيش قائم على دلايات أو مقرنصات وهذا النوع من المآذن يشبه الفنارات. وفي الهند كانت المآذن في الغالب مستديرة تضيق كلما ارتفعت تزينها شرفات وتضليعات، بينما كانت المآذن في مصر وسوريا مختلفة الأنواع، فمنها مثلا المنارة الحلزونية في جامع ابن طولون، ومنها منارة جامع الحاكم الغريبة الشكل ومنها منارة تشبه أبراج النواقيس في الكنائس، ولكن غلب على مصر وسوريا نظام المآذن ذات الأدوار الثلاثة: الأول مربع والثاني مثمن والأعلى أسطواني." [٩]

لقد خلد الجهد التعميري المبدع أسماء أكثر من عمارة مسجد بفضل مئذنة على درجة من الفرادة والتميز. ولا بأس أن نذكر من باب الذكر لا غير بعضا منها. فمآذن الجامع الكبير لدمشق، سامراء، قرطبة، القيروان، الكتبية، القرويين، الأزهر، الفسطاط وسواها, ومئذنة الخرلدة التي بقيت العنوان الناطق لوجود مسجد إشبيلية المندثر وبطول باع بانيها أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ثاني خلفاء الموحدين تذكر بالمسجد الذي اندثر.

ويبدو هذا الإصرار من لدن أولي الأمر من المسلمين على إقامتها صوامع فخمة ضخمة إصرار يقول رغبة على إبقاء دمغة الحاكم في رحاب المدينة والتوقيع بالحرف العمراني الشامخ على حضور ومرور برحابها. إنها معالم معمارية بالإمكان الاسترشاد بها لقراءة التعاقب الزمني للأسر الحاكمة من خلال التطلع إلى توزع أشكالها ونماذجها في الزمن والفضاء الوجودي للمنطقة الإسلامية. إنها أشكال للمآذن شاء لها حب التنافس العائلي، بين أفراد العائلة التاريخية، من جهة والعقائدي، نصرانية وإسلامية على وجه الخصوص، أن تطلق يد الإبداع فيها وتغدق الأموال لتخرج للعيان تحفة فنية تشهد على حب المعبود ومعزته في النفوس.

المئذنة مظهر عمراني، إن كان حضر في وقت سابق ليضطلع بدور وظائفي تبليغي إلا أنه قد أخذ ينحو في العشريات الأخيرة، حتى لا نقول قبلئذ، وجهة المظهر الزخرفي المبالغ فيه. وفي هذه المبالغة في العناية المظهرية والزائدة عن اللزوم، إلى طرحها اسئلة صادقة النوايا منطلقة من موجبات الفعل ذاك: الدينية منها والدنيوية: فإن كان الجامع في حاجة إلى مئذنة فهل حاجته ماسة إلى مآذن؟ وأن الإجابة على هذا السؤال تتطرق إلى الجوانب التالية:

الجانب الشرعي

إن ما يتوفر من إشارات هادية تخص عمارة المسجد في الحديث النبوي الشريف إشارات تركز جميعها على مراعاة الفاعلية الوظائفية لكل عنصر من العناصر المشكلة لعمارة المسجد مع تلافي كل ما من شأنه أن يمثل فائضا زخرفيا مجانيا قد يتحول فعله، على نبل مقاصد فاعله إلى غير مبتغاه عند العامة الدهمائية وينقلب ما كان اجتهادا صادقا إلى ما يشبه العرف الملزم والجاري مجرى القانون. وفي هذا ما يتهدد رسالة سماوية سامية للمسجد بالزيغ عن غايتها المثلى فيتخذ مظهر تصنيع المآذن طابعا تنافسيا مبالغا فيه وهذا كله في غياب توصية فيما نعلم ربانية كانت أو نبوية في حق هذا الشكل من العناية المظهرية بالمآذن. إن كل ما يتوفر لدينا أمر شبه نهي ضمني عرض له أكثر من حديث مروي يذكر تمثيلا لها الأحاديث التالية:

١- روى أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة وصححه ابن حيان عن انس عن النبي ﷺ قال: "لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بالمساجد" ولفظ ابن خزيمة: "يأتي على الناس زمان يتباهون بالمساجد ثم لا يعمرونها إلا قليلا" [١٠] فالدعوة إلى تشييد المساجد ولو كانت سعة واتساعا بقدر "مفحص قطاة لبيضها." [١١]

٢- كما روي عن إمام البشرية دعوة تقول تشجيعا لبناء بيوت الله لكن مع نهي في المقابل عن المبالغة في زخرفتها بموجب قوله ﷺ رواية عن أبي داود عن ابن عباس "ما أمرت بتشييد المساجد لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى". [١٢]

٣- وهو ما أخذ به الخلف الراشدي ممثلا في عمر رضي الله عنه إذ روى ابن خزيمة وصححه "أن عمر أمر ببناء المساجد فقال: أكنن الناس من المطر، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس" [١٣] وقد رواه البخاري معلقا.

إن في هذه الأحاديث وسواها ما ينهي نهيا عن زخرفة المساجد دون أن يعني ذلك إهمالا لها والتفريط في العناية بمظهرها ومعالمها، فالوسيطة الإسلامية واجب الأخذ بها هنا وتحقيقها على نحو "لا إفراط ولا تفريط" ويعتقد أن الرسول ﷺ قد قصد بقوله "ما أمرت بتشييد المساجد" أسلوبا مبالغا فيه في رفع للبناء بشكل يزيد عن اللزوم وربما كلف خزانة المسلمين نفقة ليست مستوجبة شرعا. ولا نخال أن الإسراف في النفقات بغية تشييدها مآذن إلا فعلا مستهدفا ضمنا بهذا النهي النبوي.فالمئذنة في هذا الصدد، جزء من عمارة المسجد التي نالت من العناية والرعاية ما أضحى يكلف خزينة المسلمين جهدا ماديا بالإمكان الحد منه بل اقتصاده بغية إنفاقه على وجوه ذات نفع أعم وأهم، مثل تأسيس مرافق تعليمية تسهم في شد عضد المؤمن وتسليحه بما يفيد بنيانه الإيماني بالله عز وجل.

حقا أن حاجة المسجد إلى صومعة حاجة لا يختلف فيها اثنان لكن ان تتعدد الصوامع في الجوامع والمساجد على السواء وعلى محدودية مساحتها فمظهر ذو طابع ترفي زخرفي بالإمكان التساؤل عن جدواه، إذ ما شهدت به كتابات الغير ــ حتى المغرضون منهم حقا ــ هو ملمح البساطة الطابعة لعمارة المسجد، وفي ذلك تقول موسوعة الفن في تاريخ الإنسان.[١٤]

Marx Hollingsworth: L'art dans l'histoire de l'homme :

(La simplicité du culte islamique s'oppose radicalement à la complexité cérémonielle et hiérarchique du christianisme: il n'existe ni prêtres (seulement des maitres) ni processions ni autels: L'architecture de la mosquée est en accord avec cet esprit: les grands espaces libres sont recouverts de coupoles destinées à protéger les fidèles de la chaleur ou des intempéries. Une niche (ou se signale le mur de la qibla...) mihrab.

(الترجمة: إن بساطة المعتقد الإسلامي تتعارض جذريا وتعقدات طقوسية احتفالية وتراتبية للدين المسيحي. إذ لا يوجد في الإسلام كهان (الموجود فقط أئمة) ولا مواكب كنسية طوافة ولا كان هناك قداس. إن هندسة المسجد على وفاق واتفاق مع هذا التصور. فالمساحات الكبيرة الفارغة تغطيها القباب المخصصة لوقاية المصلين من لفحات الحر أو التقلبات المناخية.أما المحراب فيؤشر على وجهة القبلة)

فشهادة تقريضية من هذا القبيل تقر إقرارا ببساطة العمارة المساجدية وتثمن فاعليتها تثمينا : شهادة تعلي من سمعة دين عظمته متأتية من بساطته المتوافقة المتناغمة مع طبع بشري عام،وعليه،يتعين الاعتزاز بمثل هذه الشهادة لأعداء الإسلام وعدم التفريط

فيها بدعوى التعظيم والأعراب الضمني عن تقدير للقادر جل وعلا.فإن لم يكن لأحد أن يعلن اعتراضه على توسيعات شتى تمس باحة الجامع وأمكنة السجود لما في ذلك من تحقيق للراحة لآمين البيت الطهور وتنفيذا لأمره الرباني: ﴿ يا أيها الذين أمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم .... ﴾[٢، المجادلة ١١] فإن التساؤل،خلاف ذلك،يظل منطرحا، شرعا ومقتضى حال، حول عنصر للمئذنة هذه صيغ تشكيلها وزخرفتها قد تعددت لتدرك في بعض الحالات حدا كاد معه مظهرها يخل ببساطة العمارة الإسلامية ويضعها موضع تساؤل.

البعد العقائدي المذهبي

إن الجائل مثلا في مدينة عربية إسلامية كوهران وسواها من مدن الجزائر لا محالة ستذهله تعددية الأشكال المقولبة للصوامع إلى حد أن بعض المساجد قد غدت تتخذ من أسلوب التشكيل للمئذنة وهندستها قناة لتمرير خطابها المذهبي والإعراب من طرف خفي عن طبيعة إنتمائها. ففي الشكل المعتمد للمئذنة ما ينبي عن نية تمذهب بعض الأطراف الواقفة وراءه،و قد تنبه إلى ذلك المظهر الطائفي الخطير الكاتب، Bloom, Jonathan[١٥] وضمنه إشارة إلى بعض المخاطر الفتنية التي تندس وراء فعل: ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب.

والسؤال: هل تكون المئذنة قد أضحت مظهرا برانيا يعمل في اتجاه التبديد بعكس ما سعى الرعيل الأول لتحقيقه في المساجد الجامعة؟ إن شر ما يخشاه المؤمن الغيور على دينه أن يستفحل الداء التمذهبي التحزبي وتكون المئذنة أداة حاملة له ومحملة ببعض خطره وربما وزره. وحتى لا يؤول الأمر إلى هذا المنحدر، يأمل الباحث لو يلتفت أولوا العلم والعزم والنصيحة إلى تدارس الإشكال وإصدار ما من شأنه تذكير الغافل أو الجاهل بحقيقة المئذنة بوصفها عنصرا لا يمكن التلاعب بمظهره البراني الخارجي قصد إفساد جوهر للمسجد الذي وجد للتوحيد أصلا وبعدا، وضد كل مظاهر التبذير ولو تمثلت في ماء من بحر أو جار، أو كانت من أجل تشييد مئذنة تعد طارئة على عمارة المسجد وليست طالعة من ضلع المعتقد الإسلامي الحنيف.

إن ما لا يجب أن يغرب عن بال المعماري المسلم أن عمارة المسجد ليست مجرد بناء تطلق فيه يد الإبداع دون مراعاة حدود شرع وغايات عقائدية وعلى رأسها تلافي كل ما من شأنه أن يطبع المسجد بطابع الإقليمية الضيقة (جغرافية كانت أو مذهبية) ناهيك عن إسراف في الزخرفة جاء في النهي عنها أكثر من حديث نبوي شريف، بل إن إلتفاتة إلى الوراء و تحديدا إلى تاريخية مسجد الرسول عليه السلام والتي من شأنها أن تبين للمتتبع عن أولى عهود المسجد بفن الزخرفة.إنه فعل يمكن العودة به فيما نورده عن حسين مؤنس نقلا عن ابن الأثير في "الكامل" إلى عهد الوليد بن عبد الملك حين بعث في سنة ٨٨ هجرية "إلى ملك الروم يعلمه أنه قد هدم مسجد النبي ليعمره فبعث إليه ملك الروم مائة ألف مثقال ذهب ومائة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين جملا فبعث الوليد بذلك إلى عمر بن عبد العزيز ، حضر عمر و معه الناس فوضعوا أساسه وابتدءوا بعمارته." [٤، هامش رقم ١، ص٦٤] فلا جدال أن زخرفة المسجد ومن ثم التفنن في إخراج المآذن لمسة فنية كانت وراءها يد وافدة على الديار الإسلامية ابتغت بتلك الواسطة الإعراب عن حسها التعاطفي الصادق مع المعتنق الجديد، فالنوايا على هذا سليمة معافاة،

لكن أن يمضي الولع بعنصر التوشية والزخرفة حد التغطية على ما عداه، وحينا السقوط فيما يشبه المجانية والتبذيرية فذاك ما لا يقر به شرع أو اجتهاد فقهي ولا حس.

وتعدد المآذن، فما هو إلا مظهرا عمرانيا يحسب أن ضرره أكبر من نفعه على الأقل متى تموقع في بقاع الإسلام والمسلمين، وقد يكون بالإمكان التجاوز والتغاضي عن مظهره التعددي إن أوقف على مساجد مقامة في بلاد الفرنجة و عندها فقط، ولعلة توجز في رغبة التبليغ عن حضور للإسلام بالحرف التاجي الوهاج ضمن فضاء الغير ورغبة في تميز عمارته عما عداها من الأشكال العمرانية النصرانية وغيرها, ويمكن القول عندئذ أن في تلك الغاية ما يبرر الوسيلة المسخرة مرحليا.

الجانب الوظيفي

أما أنموذج المئذنة المعروفة بالإيرانية شاهد على ما نقول فهي غير مجهزة لا بطبقات ولا نوافذ. المئذنة الإيرانية يقول فيها زكي محمد حسن" بناء شاهق مبني لذاته، وليس لتهيأ فيه سلالم تقود إلى ردهات أو دورات يسير فيها المؤذن... و لم تكن المآذن الإيرانية تستخدم في الأذان بسبب ارتفاعها العظيم، وإنما كان المؤذن يدعو إلى الصلاة من فوق سطح المسجد." [٩, جـ، ص ١٤٩]
والسؤال ما جدوى إقامتها مآذن متعددة تبلغ الستة كما هو الحال في جامع السلطان أحمد في إسطنبول إذا لم تكن لواحدة منها وظيفة عملية أنشئت من أجلها في القرون الأولى؟

الجانب التقني

إن المئذنة التي كان لها قديما وفي غياب التجهيزات الصوتية المتطورة ما يشفع لها وجودها وحتى تعددها، فإن الحاجة إليها اليوم وقد حضرت وسائل التوصيل والإيصال وبأقل التكاليف: لم تعد حاجة ملحة، أما التعدد الذي رافق المد العثماني ومس البلدان الإسلامية التي وقعت في يد الأتراك فتعدد مآذني ما أنزل الله به من سلطان وما أغنى عمارة مسجد إسلامي عن زخرفه الزوائدي ما دامت الوسائل السمعية المتوافرة تفي بالغرض وأكثر،بل إن الاستعاضة بها عن المآذن فيها ما يوفر لبيت المال الإسلامي مدخرات معتبرة لا ضير ولا ضرر أن تنفق إنفاقا عاقلا على وجوه للنفع العام لربما أكفت الناس ذل السؤال والمسغبة. وإلا ما جدوى أن يعمد إلى تجهيز مئذنة من مثل مئذنة المسجد الكبير في الكويت بمصعد كهربائي إذا كانت المئذنة المذكورة لم يعد يؤذن من أعاليها كما كان في العهود الأولى؟ وهل ما تكون الرغبة في الإبداع و المعاصرة حبا في الإبداع والمعاصرة في حد ذاتهما المحرك الغائي لجهد المهندس المعماري الكويتي الذي لا عدمنا له حسا إبداعيا رائعا وإن لم يكن نافعا ؟

الخلاصة

إن عمارة المسجد لم تعد بحاجة إلى مزيد من عناية بمظهرها قدر ما هي حاجتها الماسة إلى عناية مدروسة بعمقها الجوهري وأن الصيغ الفردية أو الانفرادية للاجتهاد من شأنها أن لا تؤت أكلها الطيب، فالتشاور ما بين أبناء الأمة المسلمة، وعلى مستويات الحكومات المختلفة وصولا إلى الهيئات المنفذة، إجراء عملي حكيم من شأنه أن يخلص عمارة المسجد من طابع ارتجالية أصبحت تلازم أكثر من عنصر عمراني من عناصر المسجد وعلى رأسها المئذنة. فالناظر مثلا في شأن تعددها وسر زخرفتها،

ودون أن ننفي عنه صفة الثراء والإبداع, يجده ملمحا طارئا على عمارة المسجد يرتبط بزمان تفكك وتحلل وحدة السلطة المركزية في النظام الإسلامي فيما ارتأى حسين مؤنس نقلا عن جورج مارسي إذ بالإمكان العودة بهذا التعدد المشهود في إقامة العمارة المساجدية إلى عهد ضعف الدولة العباسية وانحلال عروتها إلى دولة أموية في الأندلس وفاطمية في مصر: انقسام تولدت عنه بالتالي رغبة في تثبيت الذات وتأكيد الطابع المحلي المميز، أن "في هذه المرحلة ظهر مسجد سامرا الكبير الذي تذكرنا مئذنته ببرج بابل القديم، وقام في الفسطاط مسجد أحمد بن طولون مقتبسا المئذنة الملوية وتقاليد البناء المتين الرصين المعروفة في مصر من أيام قدماء المصريين..." [٤، ص١١٤] إنها حقبة من التاريخ الإسلامي مليئة بالقلاقل لا يمكن صرف النظر عنها فيما شهدته العمارة الإسلامية وعلى رأسها المئذنة من تقلبات في التشكيل والهندسة. فالتفكك السلطوي أنتج أو أعقبه شبه تفكك في المنظور العمراني مس فيما مس عمارة المسجد. والسؤال: ألا يكون في الإمكان تجاوز هذا المظهر "التعددي" بعودة إلى رص الصفوف مجددا وإخضاع إنشاء المساجد إلى لجنة عليمة بأمور دينها بدل إناطة المهمة بكاملها على عاتق أهل الهندسة والعمران وعليهم وحدهم؟

بعد هذا الاستطراد النسبي الذي يرتبط بموضوع المئذنة بوصفها عنصرا رئيسا معنينا يمكن النظر بعين الفاعلية في كل عنصر مضاف إلى عمارة المسجد، و لا يمكن أن يظل هاجس العصرنة شفيعا مقنعا وهدفا كافيا في حد ذاته لأن في ذلك التسامح أو التساهل ما سيجعل المساجد أشبه ما تكون بكنائس للنصرانية اتخذت معارض للفن وأفانينه ودون مراعاة لمقتضى الحال والمقام وجوهره الوظائفي. وخشية أن يتلبس الجوهر مزيد من المبتدع المصطنع فيطمس بساطة المسجد بأسره، يختتم هذا البحث يطرح بدائل عملية ممكنة التحقيق لحفظ هذه المبالغ الطائلة المرصودة لتشييد مآذن سامقة شاهقة تتألف مما يلي:

- العمل في اتجاه تأهيل عدد من المآذن العالية علوا كبيرا وتحويلها إلى ما يشبه مراصد فلكية لترقب الهلال في المواسم والأعياد وتمكين المؤمن من معاينة مكنونات القبة الزرقاء وما يزخر به الخلق السماوي من أعاجيب وآيات معجزات. وإن في رؤيتها ما ليحقق قناعة بها ومتعة على السواء ويرقى بمستوى الإيمان درجات ودرجات.

- صرف المال المرصود لتشييد المآذن في اتجاه إقامتها مرافق مثل الخانات لإيواء المسلمين و عابري السبيل وفي ذلك ما لا يتنافى ورسالة إنسانية راحمة للإسلام كما يستشف من وصية لمحمد الغزالي كانت تقول بواجب الأذان لصلاة الفجر مرتين، مرة في داخل المسجد ومرة في خارجه على أن يكون الأذان الأول موجها لإيقاظ نيام مقيمين ببيت الرحمان : إنه وجه خيري للمسجد لم يعد يستأثر باهتمام مهندسي المساجد على أيامنا ولسبب من الأسباب.

- تشييدها بيوت معرفة ومكتبات و لم لا مطابع بدل صوامع على أن تكون إما بمحاذاة بيت الصلاة أو في الطابق التحتي للمسجد ويعمد إلى تزويدها بأحدث تجهيزات الاتصال بمنارات العلم الكبرى : شرقية وغربية. إن المسجل بأسف شديد على مساجد في بلد مسلم كالجزائر مثلا والتي لم تعد فيه السلطات الحاكمة تتكفل منذ أمد بتموين بناء المساجد إلا فيما ندر،أن الجناح المخصص للكتاب الديني التثقيفي شبه فارغ إلا من عدد من نسخ المصحف الشريف مقدمة على نحو هبة من قبل البعض. إن

صرف الأموال على هذا الوجه التنويري التثقيفي نجده دون شك أقرب إلى الجوهر المساجدي الإسلامي من التمادي في هدره مالا ثقيلا على عنصر للمئذنة - تشكيلا وتعددا وزخرفة باذخة - على ظن لربما خاطئ أن المئذنة من مستلزمات العمارة المسجدية.

- تشييد المآرب لتوقف سيارات الآمين بيت الله تأمينا لهم على ممتلكاتهم وإسعافا لهم على تأدية الركن بخاطر المؤمن المطمئن.
- إيجاد نواة للبث الإذاعي التلفازي مستقرة في جناح من أجنحة المسجد تمكن من التنظيم والبث لأشكال الندوات العلمية والتنظيم للمسابقات ما بين مساجد البلد الواحد أو البلدان الإسلامية.

تلكم جملة من البدائل ضمن أخرى بإمكانها لو ألحقت بعمارة المسجد أن تضيف إلى بعده العلمي التنويري المعرفي والإنساني المعاصر عمقا لا نخال أن تعددية المآذن أو ما يماثله من إضافات كفيلة بتحقيقه، والله أعلم ورسوله والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المراجع

[١] Doutte, Edmond. *Les Minarets et l'appel de la prière in :Revue Africaine* . Alger: 1899, pp.339- 349.

[٢] *مصحف المدينة النبوية*.

[٣] Marçais, Georges. *L'Architecture Musulmane d'Occident.* Paris: Arts et me'tiers graphiques, 1957 pp.209-210.

[٤] مؤنس، حسين. *المساجد, سلسلة عالم المعرفة*. عدد ٣٧، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون ولآداب، ١٩٨١, ص٦٧.

[٥] Hillenbrad, R. "Manara." In: *Encyclopédie de l'Islam.* Nouvelle edition, version Francaise, Brill (E,G) et Maisonneuve et Larose, Paris: Leiden, 1991.

[٦] كونل، إرنست. *الفن الإسلامي*.عدد ١٧, ترجمة أحمد موسى, بيروت: دار صادر، ١٩٦٦.

[٧] ابن منظور: *لسان العرب*. أنظر كلمة: أذن.

[٨] زيدان، جورجي. *تاريخ التمدن الإسلامي*. ظ٢, المجلد الأول (ص١٣٦).

[٩] حسن، زكي محمد. *في الفنون الإسلامية*. ص٤٧-٤٨.

[١٠] ابن ماجة. *سنن ابن ماجة, في موسوعة الحديث الشريف*. قرص ليزر, إصدار صخر العالمية، رقم الحديث: ٧٣١, ١٩٩١—١٩٩٦.

[١١] أحمد بن حنبل. *مسند أحمد*. نفس القرص الليزراعلاه, رقم الحديث ٢٠٥٠.

[١٢] أبو داود. *سنن ابي داود*. نفس القرص الليزراعلاه, رقم الحديث : ٣٧٨.

[١٣] *صحيح البخاري*. نفس القرص الليزراعلاه, رقم الحديث: دون رقم

[١٤] Hollingsworth, Marx. *L'Art dans l'Histoire de l'Homme.* cf :Islam.

[١٥] Bloom, Jonathan. "Minarets as Signs of Conflict in the Maghreb." In: *Minaret: Symbol of Islam,* pp.99–124.

Past and Present of Minaret: A Reading in Necessity and Harmfulness

Al-Akhdar Ibn Abdullah
College of Literature, University of Wahran
Al-Sania, Algeria.

Abstract: Tout en étant une enclave forte de la foi musulmane, la mosquée a été et demeure un lieu de prédilection où l'élan créateur musulman s'est manifesté avec force, joie et foi.
Mais la primordialité accordée à l'élément architectural du minaret nous a laissé fort perplexe aussi bien quant à son utilité qu'à sa légalité vis à vis de la Chari'a ;d'où est venue notre intervention.
Sans vouloir nullement s'attaquer à l'élément minaret en soi, nos remarques visent tout particulièrement son coté ornemental trop exagéré si ce n'est gratuit .Ainsi, le minaret ,élément tout décoratif et pittoresque qu'il est , ne peut et ne doit en aucun cas, justifier une présence au pluriel (4 à 6 minarets au sein d'une même mosquée)et dont les fins sont devenues injustifiables de nos jours où la technologie de son est au comble de son perfectionnement.
Pour ce , notre exposé tout en tenant à formuler des critiques là dessus, n'a pas manqué d'émettre quelques propositions en vue d'une bonne gestion de ce lourd héritage de minarets; entre autres citons : l'aménagement de l'espace minaret existant en espace d'observatoire scientifique , investissement de l'argent prévu pour la réalisation de minarets dans des projets d'ordre caritatifs , scientifiques et sociaux.
En conclusion, disons que le minaret dont l'élévation trop raffiné coûte toute une fortune au contribuable , ne peut malheureuse-ment à ce prix là qu'influencer négativement une philosophie qui gère ,mais en silence ,le bien fondé d'une mosquée musulmane qui tire sa grandeur de sa simplicité.